

سورة البقرة.. الآية الأولى

فإن قيل: إذن ما هي الزيادة التي أشرت لها؟ أقول:

أولاً: المبالغة في الخيال الشعري: وهذا يتعلق بشيء من عدم الصدق الذي لولاه لما كان للكلام أن يصل إلى ملامسة القلب على الوجه الذي يريده الشاعر، وقد وجد هذا الضرب من الخيال في القرآن الكريم، إلا أن قياساته تبنى على الأمثال التي يتلقاها الإنسان عن طريق المخيلة التي تجعله يقوم بتحليل الكلام على ما يحاكي عصره دون النظر إلى المستجدات الخافية التي يقررها العصر اللاحق بدرجات تفهم من خلال المقتضيات الآنية التي ترتبط في مقام الكلام والنسب المتفاوتة التي يحتملها، كما هو الحال في تعليم الأسماء لآدم "عليه السلام" أو الرحلة التي قام بها موسى مع العبد الصالح، وكذا في متفرقات القرآن التي يمكن أن تكون أقرب إلى المثل المقرر في سياقه الذي يشتمل على الأبعاد الحادثة أو التي تظهر في كل وقت، كما في قوله تعالى: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين***فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) الأعراف 190-189.

من هنا يظهر الفرق بين الكلام الذي جاء به القرآن الكريم وبين المباني الشعرية الخاضعة إلى تحكم النفس البشرية، أو مقتضى الحال الذي يمر به الشاعر الذي يُحسِّن القبيح أحياناً أو العكس، إضافة إلى المصالح الخاصة ورثاء الأهل والثناء على أصحاب الشأن وهكذا، ولهذا كان الاهتمام بفلسفة الشعر يأخذ الجوانب الايجابية في تبيان الحقائق التي يعجز عن فهمها من كان بعيداً عن الذائقة الشعرية، أو عن دراسة أحوال العرب قبل نزول القرآن الكريم، وأنت خبير من أن بعد المسافة الزمنية تجعل التنقيب عن المعنى الشعري لا يرقى إلى المستوى الحقيقي، ما لم يكن هناك شرحاً وافياً للكلام أو تحليله فلسفياً من قبل أصحاب الذوق الرفيع، أو ما يعبر عنهم بأصحاب الصنعة الشعرية، ومن الأمثلة على ما نحن بصدده، هو ما قيل إن الفرزدق سمع إلى رجل ينشد معلقة لبديع بن ربيعة التي يقول في أولها:

عفت الديار محلها فمقامها.....بمنى تأبد غولها فرجامها

حتى وصل إلى البيت الثامن الذي يقول فيه:

وجلا السيول عن الطلول كأنها.....زبر تجد متونها أقلامها

فما كان من الفرزدق إلا أن يسجد عند سماع هذا البيت، فقيل له ما هذا؟ فقال أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر. وبناءً على ما تقدم يظهر أن المدح والرثاء أو الهجاء مثلاً لا يستقيم إلا إذا تنازل الشاعر عن الصدق الذي لا سبيل له عند أرباب هذه الصنعة الذين يحق لهم الدخول في جميع الأودية مما يجعل كلامهم يحتمل التناقض في طياته، فالذي يُمدح اليوم ممكن أن يُذم غداً، والقبيح سيصبح حسناً وهكذا فالأمر لا يتعدى إلى أكثر من الحالات التي تبنى عليها مصالحهم أو ما يرضي القبائل التي ينتمون إليها، ولذا قال تعالى فيهم: (هل أنبيئكم على من تنزل الشياطين***تنزل على كل أفك أئيم***يلقون السمع وأكثرهم كاذبون***والشعراء يتبعهم الغاورون***ألم تر أنهم في كل واد يهيمون***وأ أنهم يقولون ما لا يفعلون) الشعراء 221-226. وكذا قوله: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يس 69. وقوله تعالى: (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون) الحاقة 41. من هنا يمكن الوصول إلى معرفة الفرق بين القرآن الكريم وبين الشعر، فالأول ملاك الصدق والثاني يعتمد على الخيال والمفاخرة والانتقال من واد إلى آخر تبعاً للحياة التي تعيشها القبائل آنذاك. فإن قيل: ألا يعتبر هذا الطرح تقليلاً من شأن الأدب العربي؟ أقول: أنا أتكلم من جانب المتن الشعري دون التقليل من البلاغة التي لولا الاعتراف بها لما ظهرت درجات التحدي بينها وبين القرآن الكريم.

ثانياً: اختلاف القواعد الشعرية مع القرآن: ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في معلقة امرئ القيس التي يقول فيها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.....بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقد قيل إن امرئ القيس كان يخاطب صاحبه بصيغة المثني لأسباب تتعلق بالضرورة الشعرية أو النسق الذي يتحكم في فحوى الكلام ومقامه، وما قيل إنه خاطب الكلب والبعير فلا يعول عليه في مواقف تحتاج إلى البكاء على الأطلال، أما ما ذكره عنتره عن حصانه فذاك شأن آخر، ولهذا أراد جمع من المحققين أن يجعلوا من هذه القاعدة دليلاً على خطاب القرآن للثنين وإرادة الواحد أو العكس، أو التكلم عن الجماعة وإرادة الواحد، وهذه القاعدة وإن كانت تتطابق مع صحة اللفظ إلا أن المعنى الخارجي لها لا يتناسب مع أجواء القرآن الكريم، ومن أمثلتهم على ذلك، قوله تعالى: (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) ص 21. فظاهر اللفظ هنا يبين أن المتخاطبين مجموعة من الناس، ثم بعد ذلك تغيرت الألفاظ إلى اثنين فقط، وللجمع بين الوجهين يحمل اللفظ على حقيقته لأن الخصم مصدر كالخصومة أو الخصام، ويمكن التعرف على هذا الوجه أكثر من قوله تعالى: (وجاءوا على قميصه بدم كذب) يوسف 18. أي دم

كاذب، والمراد هنا مجموع القوم الذين تسوروا المحراب، وقولهم: (لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) ص 22. أي فريقان بغى بعضنا على بعض، أما قوله تعالى: (هذا أخي) ص 23. فهو كلام من يمثل القوم المعتدى عليهم حسب السياق، ولا يوجد في اللفظ ما يدل على التكلم عن الواحد واردة الاثنين أو الجمع، وهذا كقوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم) الحج 19. فالمراد هنا إشارة إلى الفريقين لا إلى شخصين بعينهما، وما يبين ذلك أكثر تجده في قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) الحجرات 9. فقوله تعالى "طائفتان" إشارة إلى الفريقين أما عند انتقال الآية إلى قوله "اقتتلوا" فهذا بيان إلى دخول مجموع أفرادهما في القتال، وهذا باب واسع في القرآن الكريم يحتاج إلى تأمل.

ثالثاً: استعمال الحروف المقطعة: استعمل الشعراء الحروف للاختصار أو التعريض، كقول أحدهم:

نادوهم ألا أجموا ألا تا.....قالوا جميعاً كلهم ألا فا

وأراد ألا تركيبون، قالوا، ألا فاركبوا، وكذا في قول زهير:

بالخير خيرات وإن شراً فشر.....ولا أريد الشر إلا أن تا

وأراد إلا أن تشاء، وقد نسب إلى الوليد بن عقبة قوله:

قلت لها قفي فقالت فاف.....لا تحسبينا قد نسينا الايجاف

وقاف يعني وقفت، وكذا في قول امرئ القيس:

وكاف وكفكاف وكفي بكفها.....وكافي كفوف الماء من كفها انهمل

من هنا يظهر التحدي في استعمال القرآن الكريم لهذه الحروف، فكأنه يقول إن الصنعة التي بيننا مكونة من نفس المادة، فهلا جئتم بكلام من مثل القرآن الكريم، أو من مثل النبي الأمي "صلى الله عليه وسلم" وقد بين تعالى ذلك في قوله: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين) البقرة 23. وهذا التحدي الذي أشار له القرآن الكريم

بواسطة الحروف المقطعة نجده قد تكرر في تسع وعشرين سورة، وكانت أول السور التي افتتحت بهذه الحروف من حيث الترتيب الذي بين أيدينا، هي سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: (الم) البقرة 1. وقد جمع العلماء هذه الحروف بعد حذف المكرر منها في جملة مفيدة وهي: نص حكيم قاطع له سر.